المبحث الرابع

• ما الذي قام الإسلام ضده ؟ •

لا يجد القارئ لكتاب الدكتـور مراد هوفمان « الإسلام عام ٢٠٠٠» تطابقًا بين عنوان مبحثه الرابع « ما الذي قـام الإسلام ضده؟ » وبين ما كتبه تحت هذا العنوان .

لأن ما كتبه على امتداد سبع صفحات يصلح أن يكون موضوعًا لعنوان آخر ، هو مثلاً : «صور متنافرة في حياة الغرب اللاديني».

لأننا نرى المؤلف يسرد أوضاع أوروبا المعاصرة من الداخل ، أوضاعها في المعتقد ، وأوضاعها في الأخلاق والسلوكيات اليومية .

في الاعتقـاد يذكر المؤلف أن الاتجاه الغالب على شـعوب الغرب هو عدم الارتياح لفكرة «الله » ، وهذا وصف صائب ، والأجيال المعاصرة في الغرب - الآن - معذورون في عدم ارتياحهم لفكرة « الله »؛ لأنهم حرموا من الوصـول إلى معرفـة الله على مدى تاريخـهم الطويل ، وحـرموا من معرفة الدين الحق الخالص لله .

فقد دخلـت المسيحية الـغرب من أول عهدها ، وهي مـحرفة ؛ ولأن الكنيسة التي حملت إليهم عقيدة الإمبراطور الروماني الوثني ، التي فرضها على مجمع نيـقية المسكوني عام ٣٢٥ م - لم تستطع أن تقـيم دليلاً واحدًا على صحتها . وإنما فرضتها بقوة النار والحديد .

ولو كانت أوروبا قد تلقت العقيدة الديـنية كما أنزلها الله على المسيح لكان لهـا الآن من الدين موقف آخـر غيـر ما تتردى هي الآن فـي دركاته المظلمة ، أضف إلى هذا اضطراب الأناجيل الأربعة - بعـد إخفاء الأناجيل

الكثيرة القديمة - في عرض مسائل الدين .

فلا غرابة إذن أن يكون الاتجاه الغالب على تلك الشعوب عدم الاطمئنان لفكرة الإيمان بالله ، لا لأن هذه الفكرة تقبل الرفض ، ولكن لأنها عرضت عليهم على غير وجهها الصحيح .

وقد أصاب المؤلف حين أشار إلى أن بعض دعاة هذه الفكرة المحرفة في الإيمان بالله ، تشككوا هم أنفسهم في ما يدعون إليه الناس ، ثم انفصلوا عن الكنيسة ، وبدلاً من أن يدخلوا في الإسلام آثروا أن يكونوا مثل من اتخذ إلهه هواه . [ص٢٥] .

ويسوي المؤلف بين المجتمعات الصليبية ، والمجتمعات الشيوعية وإن كانت آفة الأولى الفشل الكنسي في عرض مسائل الإيمان عرضًا صحيحًا، وآفة الثانية حبس فكرها في ما يدرك بإحدى الحواس الخمس (العلمانية) ، وكفرها بما عداه من أصول الإيمان الغيبية ، التي طريقها الوحي الأمين المصون من كل تحريف .

ويحدد المؤلف روافد الضلال الذي خيم على المجتمعات التي ضلت الطريق في الوصول إلى الإيمان الحق ، في تلك المذاهب التي نشأت في الغرب ، على أيدي كارل ماركس ، وتشارلز داروين وفريدرك نيتشه ، وسيجموند فرويد، ومعهم - كما يقول المؤلف - كل الفلاسفة الوضعيين، مثل أوجست كونت ، وجان جاك روسو وميكيافلي وغيرهم .

ويشير إلى أن تركيا في عهد « أتاتورك » حذت حذو أوروبة في التنصل من الدين ، فهم يحتفلون بعيد الفطر بدون أن يصوموا رمضان كما أن المسيحيين في أوروبة وأمريكة يحتفلون بعيد الميلاد «الكريسماس» دون أن يجزموا بوجود الله أو المسيح . [ص٢٦].

إن أوروبة المسيحية اخترعت لها معبودًا غير الله ، وغير المسيح هو التقدم العلمي المادي ، الذي مهرت فيه .

ويسمي المؤلف هذا الإيمان المادي بالإيمان الأبله ، وأنه -مع الأسف- سيظل سائداً في تلك المجتمعات إلى حين [ص٢٦] .

وأنهم سيحاولون فرض هذا الإيمان على العالم أجمع ، على أن المثل الأعلى فيه « نموذج الحياة الأمريكية المعاصرة ؟!» .

ويلتفت المؤلف إلى المسلمين ، ويحذرهم من الانسياق وراء هذا النموذج الغربيّ الماديّ، أو «اللاهوت العالميّ» ، كما يسميه المؤلف ، الذي سيواجه العالم الثالث ، فيقول : «إذا لم يرد العالم الإسلاميّ أن يعيش في تلك الثقافة الواحدة (العولمة) وجب عليه أن يبذل جهداً هائلاً ليحقق دار إسلام القرن الحادي والعشرين ، حيث تصبح كلمة الله قانونًا وتزدهر ثانيًا الحضارة الإسلامية .

عالم يشعر فيه المسلم أنه في بيته ، ليس كمواطن ، ولكن كمؤمن عضو في الأمة الواحدة .

عالم يمارس فيه المسلمون التكنولوجيا بعد تهذيبها من اللاإنسانية .

عالم يصعد فيه المدح والثناء للواحد الأحد ، وله كل التسليم والخضوع» [ص٢٧] .

وهذا إدراك طيب من المؤلف ، يحث فيه المسلمين على الحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية للأمة ، التي أخرجت خير أمة للناس .

فبدلاً من الانصهار في بدعة « العولمة » التي تفقد فيها الأمة الإسلامية هويتها الدينية والثقافية ، عليها أن تقيم حصونًا مانعة ضد الغزو العولميّ » المزمع تصديره إلينا .

ومراده من «دار إسلام القرن الحادي والعشرين » هو الحرص الشديد على احتفاظنا بمقوماتنا الإسلامية في العقيدة ، والتشريع ، والأخلاق والثقافة، ثم الأخذ بأسباب النهضة في العلوم الحديثة، التي ملكها الغرب، وبسببها تفوق علينا في فقه الدنيا ، ثم تحكّم بسبب فقرنا فيها في مصائرنا

ومقدراتنا ، ومن لم يملك دنياه فلن يملك دينه .

وكم كان موفقًا حين حدد وظيفة الفرد في هيكل الأمة ، رافضًا أن يقف دوره عند وصف « المواطنة » لأن فكرة « الوطنية » مع ما لها من قوة، فإن الاحتلال الأوروبي أراد منها تفتيت وحدة الأمة بتعصب كل جماعة يعيشون في وطن لوطنهم ، ضاربين عرض الحائط بالانتماء إلى الأمة ، وبهذه السياسة الخبيثة مزقوا وحدة المسلمين ، ويسروا لأنفسهم وسائل اختراق حصونها ، وفرض إرادتهم عليها .

وإلى هذا المعنى أشار المؤلف بقوله : «عالم يشعر فيه المسلم أنه في بيته ، ليس كمواطن ، ولكن كمؤمن عضو في الأمة الواحدة»، كما يحذر الدكتور هوفمان من عودة الإقطاع وطغيان الرأسمالية الغاشمة ، التي تمكن أصحاب رءوس الأموال من استعباد الأفراد ، وتشرع من القوانين ما يحمي مصالحها ، وفي ذلك يقول :

«عالم لا يستبد فيه الاقتصاد وكفاءة التشغيل والإنتاجية والتكنولوجيا العالية ، ومعدل التنمية والحصول على أقصى ربح ، وإنما تتحكم فيه متطلبات البشرية : المادية والروحية والعاطفية » [ص٢٧] .

نظرة صائبة صادقة ، يطرحها المؤلف أمام العمل الإسلاميّ ليحمي المسلمون أنفسهم من طغيان « العولمة » الجارف ، الذي لن تكون عاقبته إذا لم نتحصن منه ، إلا محو هويتنا من الوجود ، ثم يختصر نصيحته في الفقرة الحكيمة الآتية :

«باختصار : إذا أردنا نحن - المسلمين - أن نترك وشأننا ، فعلينا أن نجاهد جهادًا جبارًا لنحمي حقنا في الاختلاف الثقافي في عالم يسعى لفرض النموذج الغربي عالميًا ، وسوف يتطلب هذا إعادة تأسيس الفكر الإسلامي لمواجهة مد ما بعد الحداثة في كل الجبهات:

التعليم - الاقتصاد - الاتصالات - العلوم السياسية - القانون -

التكنولوجيا » [ص٢٨].

وفيما يتصل بحوار جدي فعال بين الشمال والجنوب - يعني المسيحية والإسلام - يطرح الدكتور هوفمان بعض الصعوبات والسلبيات التي تجعل إمكانية إجراء ذلك الحوار نوعًا من اللهو الساذج، أو الضحك على الذقون.

أولى هذه الصعوبات : أن الغرب أفلح في تقليص المسيحية - موروثه التاريخيّ - فما الذي يجعله جادًا في حوار يجريه مع الإسلام ؟

والصعوبة الثانية : ما الذي يدفع الغرب إلى إجراء حوار مع الإسلام في أمور غير مادية - يعني غيبية وهي حقائق الإيمان - مع أن الغرب نجح في حذف تلك الأمور من أجندته ؟!.

هاتان صعوبتان مركزهما الغرب نفسه ، أما الصعوبة الثالثة فمصدرها المسلمون أنفسهم ، وفي تصويرها يقول المؤلف : «ما الذي يجعل الغرب يأخذ ثقافة العالم الثالث مأخذ الجد إذا كان العالم الثالث - بما في ذلك كثير من المسلمين - اتخذوا الغرب قبلة ، وجعلوا من أنفسهم هجينًا كاريكاتوريًا للغرب؟! » [ص٢٨].

ونضيف إلى هذه الصعوبات التي ذكرها المولف صعوبة أخرى بالغة الخطورة :

تلك الصعوبة هي : أن الغرب حاقد كل الحقد على الإسلام ، شديد التعصب ضده ، لا يرضيه إلا زوال الإسلام ، أما التقارب من الإسلام ، فهذا بعيد المنال ، ولن ينسلخ الغرب الصليبي من تاريخه الطويل عن دينه الموروث ، مهما وجهت إليه من نقود ؛ لأن في ذلك انتصاراً للإسلام ، وتسفيهًا لعقولهم ، فكيف يسمحون بهذا الانتصار لأعدى أعدائهم ، إنهم سيظلون يجحدون فطرية الإسلام وصحته ، وإن استيقنت أنفسهم أنه دين الله المصون من كل تحريف وتبديل.

إننا نكون في قمة السعادة حين يكف الغرب عن إساءاته المتعمدة للإسلام ، واعتداءاته الغاشمة على المسلمين ، وبخاصة الأقليات والدول التي كانت ترزح تحت وطأة الإلحاد الأحمر ، والدول التي لم تدر في فلك قوى الغرب الكبرى .

ولما كان الغرب الحديث قد اتخذ التقدم الحضاري المادي إلهًا يعبد من دون الله ، وعبادة هذا الإله الوهمي هي الأنانية والإغراق في الشهوات ، لما كان الحال كذلك في الغرب الحديث أرجع المؤلف مبررات مثول هذا الإله في أذهان الغربيين إلى عنصرين هما أبو وأم هذا الإله :

أحدهما : العقل المنفصل عن الدين جملة وتفصيلاً .

وثانيهما : العلم الوضعي ، المدرك بإحدى الحواس الخمس .

ثم أخذ المؤلف يسوق قواطع الأدلة والبراهين على عجز العقل والعلم وحدهما عن تحقيق السعادة الحقة للناس في الغرب ، وفي كل مكان .

يقول في عجز العقل : «لم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية لم يمنع حربين عالميتين وحشيتين ، استخدم فيهما القنابل الغاز ، والقنابل النووية ، والقصف الاستراتيجي على المدنيين في مدن ، مثل درسدن .

وهل رأى العالم جرائم أسوأ مما ارتكبه ستالين في الاتحاد السوفييتي ضد شعبه ؟ ! .

وما ارتكبه الألمان والفاشيون ضد اليهود وغيرهم ؟! .

وهل استراتيجية مبنية على الردع المتبادل ، مع التهديد بالإبادة تعتبر عقلانية؟! » [ص٢٩] .

وفي عجز التقدم الحضاري المادي عن تحقيق أخلاق فاضلة ، تنعم بها البشرية يقول المؤلف :

«يمكن للمفكرين الغربيين أن يستنتجوا . . أن الأحداث الرهيبة للقرن الحالي نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم.

تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية الإلهية - ولا شيء غير ذلك - يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية للأفراد والجماعات » [ص٢٩] .

هذه شهادة من رجل رضع مع مولده ألبان الحضارة الغربية ، ونشأ في أروقتها وترعرع ، وعاشها من الداخل بكل حواسه وبقلبه وعقله ، فهو يتحدث عنها حديث خبير .

وها هو ذا يزنها ويقومها ويحكم عليها ، إنها لا يسوغ الاعتماد عليها بعيداً عن الدين .

وهي عاجزة كل العجز في تحقيق النموذج الأعلى في مجال الأخلاق والسلوك ، فضلاً عن غرس العقيدة الصحيحة في القلوب :

«حضارة ضلت فأضلت ، وعمت فأعمت ، فكانت أصلح البيئات لإدمان الكحوليات والمخدرات ، الشذوذ المعلن ، الإساءة للأطفال ، ارتفاع معدلات الطلاق (إن كان هناك زواج من الأصل) ، الإباحية الشديدة، وقد يكون الأسوأ في ذلك اتجاه الشباب ليعيشوا فرادى رجالاً ونساء ، ولا يستطيع أحد حتى الآن أن يقدر حجم الخسارة لجيل نشأ بدون أحد والديه» [ص٣١] .

ذكر المؤلف هذه المثالب المنتشرة في مجتمعات الغرب ، كشواهد على فشل الحضارة المادية ، التي قامت على دعامتي العقل والعلم الوضعيّ .

ونحن نضيف إلى ما ذكره ما وصل إليه الغرب من بهيمية عمياء متمثلة في زواج المحارم ، وزواج الذكور بعضهم ببعض .

لقد أفسدت تلك الحضارة الفطرة السليمة ، التي فطر الله الناس عليها، فصاروا عبيداً لشهواتهم الدنيئة ، التي تترفع عنها أخس السوائم.

واستبدل كثير من بنيها الاقتران الجنسي بين الذكور والإناث بالزواج الرسمي الموثق بمعرفة رجال الدين. وتفوقت مجتمعاتها في الدناءة والانحطاط على الشعوب البدائية والهمجية فتعسًا لها من حضارة كافرة كنود؟! .

ومما سجله المؤلف عن فواجع تلك الحضارة ، أنهم بدلاً من اتخاذها مدارج إلى الإيمان بالله ، وقد كشفت لهم أبحاثهم العلمية عن كثير من أسرار الله في كونه ، اتخذوها دركات إلى الكفر والإلحاد .

ويذكر لبعض علمائهم مثل ماكس بلانك وآلبرت آينشتاين وفرنر هايزنبرج أبحاثًا عظيمة دمرت المبادئ التقليدية للمادة كانت كفيلة بأن تنقل الغرب إلى أوج الكمال الإيمانيّ بالله ، ولكن قليلاً منهم من أدرك هذه الحقائق، واعتقدوا أن هذه الدراسات توحي بوجود العالم الخارجي - يعني ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، وتعني أصول الإيمان الغيبية .

وعلى سبيل المثال يذكر مقولة ريتشارد سوينبرن في تعليق له على نظرية « الاحتمالات » العلمية : «إنه غير مقبول لأقصى الحدود عدم وجود الله » [ص ٣٠] .

• تعقيب:

ما كتبه الأستاذ هوفمان في هذا المبحث : « ما الذي قام الإسلام ضده؟» ، وإن لم يكن مطابقًا للعنوان ، كما قلنا في بدء الحديث عنه ، يعتبر من أروع ما كتبه في «الإسلام عام ٢٠٠٠» .

سواء وصفه لمترديات الحضارة الغربية الحديثة، وأوضاع المجتمعات الغربية من الداخل، وما كتبه ناصحًا للمسلمين ضد التيارات المادية الجارفة، وبخاصة «العولمة» التي يعمل الغرب -الآن- بكل إمكاناته لفرضها على العالم أجمع، وبخاصة العالم الإسلاميّ؛ لأن سياسة الغرب الحالية إما أن تقضي على العالم الإسلاميّ كلية، وإما أن يحتويه، والعولمة هي أفلح وسيلة لاحتواء الأمة الإسلامية .